طرابلس وآثارها(١)

طرابلس ولا ازيدكم علماً لفظة محرفة عن (Tripolis) اليونانية ومعناها المدن الثلاث . وقد أطلقها المكدونيون الذين قادهم الاسكندر الكبير الى سورية على بلدة مثلثة . فعرفت بها من يومئذ . اما اسمها الفينيقي الذي وسمت به قبل اليونان فمجهول . لان التاريخ لم يعج به . ولا غرو فان التاريخ عودنا الصمت في مواضع شتى فكاد الدهر يطمس على كثير من الحقائق لولا ان الآثار والرقم (Les Inscriptions) لساناً صيره العلم بليغاً . فهل يرجى للآثار السورية ان تُظهر للملاء مكنوناتها كما أظهرت بلاد النهرين .

ومن الغني عن البيان ان آثار بين النهرين قد جلت شيئاً عن أحوال سورية في بعض ازمنتها . فان كان القدماء من سكان سورية على شيء من مماثلة الكلدان والاشوريين والبابليين وغيرهم من اهل بين النهرين او وادي النيل في عاداتهم اذن لاستبشرنا ان في طيات تربتنا الملأى بالطرائف والأنقاض الشيء الكثير من تاريخ البلاد .

على ان الفاتحين لم يقصدوا بكتاباتهم على الحجر او الآجر او الهياكل الا تخليد أعمالهم والمفاخرة ببطشهم فظهرت الرقم لعهدنا هذا مملوءة بالفوائد . ولذلك لسنا نعلق آمالاً كباراً على وجود رقم ذات شأن لانه لم يقم في سورية دولة غازية .

ومما يؤخذ من قول الفاتح الاشوري اسورناتسربال في الفقرات ٨٤ و٨٥ و٨٦ مما نحن بصدده : بومئذٍ احتللت منحدرات لبنان ونزلت الى بحر فينيقية الكبير وهنالك عند البحر علقت سلاحي وقدمت الذبائح للأرباب (واخذت) الجزية من ملوك ساحل البحر الصوريين والصيدونيين والجبليين والميخالياتيين والمايزيين والكايزيين الفينيقيين واهل ارواد الخ . ولنجدن مترجم هذا الرقيم العلامة سايس الانكليزي ينقل عن العلامة دالتزش الالماني انه يحسب المدن الثلاث مخالات ومايز وكايز هن التي تألفت من اجتماعهن مدينة طرابلس .

(١) مقالة للاستاذ المؤرخ السيد جرجي بني احد أعضاء المجمع تليت على أعضاء المجمع بدمشق بمناسبة قبوله عضواً فيه سنة ١٩٢٢ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكأني بدالتزش يحسب الفاتح قد اخترق لبنان عرضاً فنزل في موضع طرابلس او على مقربة منها . وان فيها اقتبل وفود الفينيقيين الذين جاؤه لعرض الطاعة واذ ذكرهم ابتداء بسرد اسمائهم من الجنوب حتى انتهى الى الشمال . واذ ذكر المدن الثلاث بين جبيل وارواد خيل للعلامة انها طرابلس .

ولكن هذه الرواية على علو سندها لا تدعم الا الظن بان البقعة التي قامت فيها طرابلس لم تكن في الزمن الفينيقي بلقعاً بل مأهولة بفريق منهم . وهذا ما ذهب اليه العلامة رولنسون وهو الثقة الذي لا ينازع في التاريخ .

والمعروف من صفات الفينيقيين وأخلاقهم وعاداتهم انهم يسكنون المدن قرب البحر يحملنا على قبول رأي دالتزش بانهم سكنوا ثلاث مدن هي مخالات وماريز وكايز .

وان صح ذلك وجدنا سبيلاً لقبول رواية مؤرخي اليونان وفي صدرهم ديودورس ومؤدي الرواية ان الفينيقيين ولئن كانوا أمة واحدة فانهم لم يجتمعوا على ولاء دولة واحدة منهم . بل كانوا دولاً شتى تستقل كل منها في شؤونها الداخلية . واشهر من صور وصيدا وأرواد . الا انهن كن يجتمعن في الأزمات و يتألفن حلفاً لدفع الطوارئ . وان هذا أفضى بهن لعقد ديوان عام يتولى النظر والتدبير وانهن اخترن موقعاً متحايداً وان حب الاستقلال الداخلي دفع كلاً منهن الى الاحتفاظ بشأنها فبنى نواب كل من الدول الثلاث حياً مخصوصاً لسكناه يبعد عن مثليه نحو ستاديا وأقام المئة نائب عن كل من المدن الثلاث بنسائهم واولادهم وخدامهم في الحي المنسوب اليهم تسودهم شرائعهم وأحكامهم .

فما أدرانا ان كل فئة من اولئك النواب اختارت لسكناها حياً او بليدة من المدن التي ذكرها اسورناتسربال حتى اذا جاء اليونان رأوا المدينة مثلثة فسموها المدن الثلاث :

ثم كرت الايام وتوالت الحروب والزلازل فلم تبق للمدينة المثلثة من أثر . ولذلك اختلف الرواة في مواقعها فقالوا — وقد تابعتهم او نقلت عنهم ما قالوا في تاريخ سورية المطبوع — ان احد الاحياء كان في السرفتانية والثاني في موقع البلدة او في البحصاص والثالث في موضع الميناء . اما الآن فاني أنبذ القول بذلك لان البعد بين الأحياء هو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ستاديا واحدة كما قال سترابو والستاديا ٦٠٦ من الاقدام الانكليزية وبعض أجزاء القدم والحال ان المسافة بين المواقع المذكورة لاتنقص عن ميلين خطاً مستقيماً . وان موقع البلدة الحالي لم يكن عامراً قبل الزمن الصليبي . وان الفينيقيين كانوا بحارة وتجاراً فلا يرتاحون للسكنى بعيداً عن البحر . ولهذا كله ارجح الظن بان الاحياء الثلاثة كانت على سيف البحر ممتدة من موقع الميناء الحالي حتى البحصاص او ما يدنو منه .

مضى ذلك الزمن الفينيقي ولم يخلف لنا اثراً . وأعقبه الزمن السلوقي ولم تذكر فيه طرابلس الا قليلاً . على ان علم السكة المضروبة (Numismatique) يدل على ان في أخريات ذلك العهد تراخت قبضة السلوقيين فكان في طرابلس طاغيتها المستبد .

وكان بنو قيطور من بني اسماعيل قد دخلوا سورية وألفوا دولة عربية في جهات الجيدور وحوران ورسخت أقدام اصحابها ولكنهم مع عروبتهم اكتسبوا من مجاوريهم في سورية وفلسطين ظواهر الحضارة اليونانية وانتحلوا الاسماء اليونانية حتى اوشك الانتحال ان يطمس على أصلهم .

فهذه الدولة المعروفة بالايطورية تقدمت الى البقاع فامتلكت شالسيس (عين جر) واتخذتها عاصمة ثم علت فنن لبنان وانحدرت منها الى ساحل البحر فامتلكت طرابلس وجعلتها عاصمتها الثانية .

ومع اننا لا نجد لتلك الايام أثراً فان في جوارنا من أعالي لبنان قرية يقال لها ايطو تقع على طريق الانحدار من الجبل الى السهل فلعلها تخلد باسمها ذلك العهد .

وعندما فتح الرومانيون سورية وجدوا الطاغية الأخير من الايطوريين في طرابلس وله في جوارها حتى البترون معاقل وحصون فغلبوه عليها ودكوها .

وجاء بعد ذلك الزمان الروماني والبزنطي وليس لطرابلس فيهما ما يذكر ومثلها كان العهد الاسلامي الاول . ولم تخلف تلك الايام لنا أثراً لانها طمست على الماضي ولم تبق لنا من المدن الثلاث الا بلدة واحدة هي القائمة في موقع الميناء .

ومما يروى ان طرابلس أدركت في القرن الحادي عشر مقاماً مذكوراً . وذلك انها تقدمت في تجارتها وصناعتها وعلومها وآدابها . حتى وجد الصليبيون فيها اربعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آلاف نول ودار علم فخمة ومكتبة عامرة بالوف الكتب التي كان قد جمعها صاحبها القاضي ابو الحسن بن عمار .

فلما جاء الصليبيون ونزلوا على عرقا وهي لصاحب طرابلس فخر الملك محمد بن عمار بعث هذا فاسترضي الغزاة وسمح لهم ان يتجاوزوا الموضعين من غير ان يسوءهما بضر .

ولكن ماعتم ان ظفر الصليبيون بفتح القدس وهي ضالتهم المنشودة فرجع منهم فريق بزعامة ريمون ده سان جيل كونت ده طولوز المعروف في تواريخ العرب باسم صنجيل . فنزل على ما يظهر حوالى موقع القلعة بدليل ان الافرنج أطلقوا على الهضبة اسم تل الغرباء اوالحجاج (Des pélerins) كما كانوا يسمون انفسهم . واظنهم اختاروا هذا المنزل لبعده عن البلدة نحو ميلين ولقربه من نهر ابي علي (قاديشا) ولاشرافه على السهل الموصل الى المدينة . اما السهل فكان يزرع و يدر على اصحابه ربعاً وافراً .

وقد أثبر البحاثة الالماني روخت عن الراهب اكاهارد قوله ان ريمون هاجم البلدة سنة ٤٩٣ هـ فلم ينل منها أرباً غير ان المؤرخين لم يذكروا تلك الهجمة بل ذكروا انه لما ظفر ريمون بجناح الدولة صاحب حمص سنة ٤٩٥ خطر على باله ان يحصر طرابلس ثم اكتفى باخذ الجزية .

فريمون لم ينزل جوار طرابلس و يقضي السنين الطوال وهو يأوي مع رجاله الى الخيام بل في اثناء الفترة بنى له حصناً يسمى حصن صنجيل وشاد من حول الحصن على منحدر الهضبة بيوتاً لأصحابه .

وفي تلك السنة أنجدت دمشق طرابلس فتشدد ابن عمار ورد عنه هجوم ريمون . فسكن هذا عن الهجوم ولكنه أفرط في اعنات البلد ثم استعان بسفائن جنوة وحصرها براً و بحراً من غير ان ينال أرباً لان الامراء الوطنيين كانوا يرسلون النجدات للبلد . واولئك ينضمون الى الحماة و يدافعون عن طرابلس بملء الحمية .

وفي ذات مرة خرج ابن عمار برجاله وبيت الافرنج في منازلهم وأضرم النار في الحصن فأحرقه غير ان الفرنج هبوا للدفاع فاسترجعوا مواقفهم وردوا الطرابلسيين على أعقابهم . وكان ريمون قد صعد الى سطح حصنه ليشرف على القتال فجيء بالنار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المستعرة فسقط السقف ووقع الامير ثم مات متأثراً . وكان ابنه غائباً في فرنسا فتولى ابن اخيه الامرة .

اما الحصن المحروق فقد زعم بعض الآثاريين انه ذهب في الغابرين كما ذهب بانيه . ولكن الحقيقة التي تدل عليها التواريخ وتؤيدها المشاهدة ان الافرنج بنوا القلعة على أطلال الحصن المحروق . وان الجدران التي نلم عن غير البناء الصليبي انما شيدت ترميماً لما تداعى من الاصل . كما يتضح ذلك لمن يرى اركان البناء الداخلي ولمن ينظر الى السكة الطرابلسية وقد رسمت عليها القلعة بتمامها . وعندي منها قطعة مضروبة على عهد الأمير بونط .

فالقلعة بناء صليبي الاصل ولكنها ترممت مراراً جمة بعد خروج الصليبيين وظل حماتها يصلحون فاسدها حتى زماننا فلا غرو ان يطمس الترميم على الاصل حتى كاد يغلب عليه . بل أفضي الى قول بعض الناظرين اليها نظراً سطحياً انها من بناء غير الصليبيين . وتجدن البيوت التي بناها الافرنج تحت كنف القلعة ما زالت ماثلة ولئن طرأ على بعضها الترميم والتبديل . ولهذا نحسب المباني القديمة اذا عرضت لفحص الآثاريين تظهر شأنها . ولا يمكن للدور المشيدة على مخدر الهضبة وفي السويقة وسوق حراج وأمثالها إلا ان تظهر للباحث تاريخها القديم . لا سيما تلك التي رسمت على أبوابها بعض شعائر المسيحية وما برحت آثارها بادية .

ومما روى علماء الآثار أخذاً عن مؤرخي العهد الصليبي ان طرابلس كانت تحوي كثيراً من الكنائس والاديار والملاجئ والمستشفيات . وقد حاول بعضهم تحقيق مواقعها ولكني لا احسب ذلك مستطاعاً لخلو الوطاب من سند صحيح وانه ليظل مجهولاً حتى نقوم على كشفه بعثة علمية صالحة للعمل .

اما جسر السويقة فوق نهر ابي علي فالظاهر انه من بناء الصليبيين ايضاً . غير اني لا اعني ان الجسر الحجري القائم اليوم هو هو المبني منذ ثمانمائة سنة بل انه شيد هنالك جسر ورد اسمه جسر الحجاج نسبة للهضبة التي شيدت القلعة عليها .

اما الماء الجاري الى طرابلس فله تاريخه الخاص . اذ لا يعقل ان المدن الثلاث تبنى بعيدة عن الماء الشروب . فالنهر بعيد عن مواقع المدن وجدول البحصاص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يجري الا زمن الشتاء . فالضرورة تقضي بجر الماء في القني . وآثار تلك القني وجدت منذ عشرات السنين قرب الميناء فحسبها الناس كانت لجر ماء النهر . ثم ظهرت قني أخرى عند قرية مجدليا فدلت على ان طرابلس القديمة كانت تستقي ماءها من الضنية .

وربما اعتاض الاهلون ولاسيما في الميناء بحفر الآبار والصهاريج اما في البلدة التي عمرها الصليبيون فانت في جوار النهر لهم غنى . وكأني بهم شعروا بعد حين بالحاجة الى ماء أصح من ماء النهر وانقى . فجروه من نبع رشعين (رأس العين) وانا ولئن عرفنا ان جر الماء عمل صليبي فالحديث المنقول بالتسلسل لايكفي . انما يدلنا على صدقه ان القناة تمر على قناطر شيدت فوق نهر ابي علي اسمها قناطر البرنس . والبرنس كلمة افرنجية ومع ذلك ما برحت على ألسنة الناس .

لكن من هو البرنس ؟ نجيب ان الامراء الذين سادوا في طرابلس وما اليها (من حد بلاد المرقب حتى المعاملتين قرب جونيه) كان واحدهم يلقب كونت وتسمى امارتهم كونتيد . فحدث ان اولئك الكونتات أصهروا الى امراء انطاكية الذين يلقبون بالبرنس .

وفي سنة ١١٨٩ توفي كونت طرابلس فاستولى برنس انطاكية صهره على بلاده وجعل ابنه كونتاً عليها . فظل يحكمها الى سنة ١٢٠١ حين توفي ابوه البرنس وانتهت إمارة انطاكية للابن الكونت فصار برنساً وهو بيموند الرابع صاحب طرابلس . الذي جمع بين الإمارتين وآثر لقب برنس فيهما جميعاً . وظل على إمارته حتى مات سنة ١٢٤٣ فخلفه ابنه ثم أحفاده ولكن آجال إماراتهم كانت قصيرة وايامهم لم يغلب فيها الصفو والهناء . ولذلك نرجح ان بيموند الرابع هو الشارع في جر الماء وبناء القناطر . الا ان الماء المذكور على ما قال النويري توزع في أرجاء طرابلس ودخل بيوتها على عهد سيف الدين بلبان الطباخي نائب الفتوحات اي بعد ان استرجع المسلمون البلد .

واني لأخشى ان يكون المؤرخ من الناسجين على منوال سائر مؤرخي تلك العصور في إلقائه الكلام من غير تثبت وتحقيق وانما ابتغاء اظهار فضل قومه . ولا أقول هذا الا لاني قرأت له رواية تخالف شهادة الآثار البادية للعيان فقد قال عن الميناء بعد فتحها وهدمت المدينة ... ثم عمر المسلمون مدينة مجاورة للنهر واختلفوا فيها (اليها)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعمروا فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس للعلم الخ . وكلامه هذا يدل على ان المدينة الحاضرة كلها من بناء المسلمين مع ان آثار الهندسة الفرنجية ظاهرة في كثير من مبانيها . فتجد البحاثة سو برنهايم يؤثر عن برشم قوله ان طرابلس ما برحت محافظة على شكل مدينة من مدن العهد الصليبي لما فيها من الأقواس (القناطر) التي تجعل الأزقة كالأقبية . وثمة ثلاثة قناطر غططية (gothique) ربما كان شكلها مأخوذاً عن المباني المسيحية القديمة . فاحداها قنطرة الباب في حمام عز الدين الذي بناه عز الدين ايبك والثانية على باب الجامع الكبير وهي ممتازة بكمالها في شكلها والثالثة على باب البلدية . وهنالك ايضاً قنطرة على الطرز البزنطي قائمة فوق مدخل من أبواب الجامع الكبير الخ .

اما الميناء فان الدهر قد طمس على آثار الصليبيين فيها لان الفاتحين دكوها الى الارض لكن بقي عند طرفها الجنوبي على طريق فوق الريح قطعة من السور العتيق تنم عن الحد الذي بلغته البلدة يومئذٍ . اما الابراج القائمة على سيف البحر فقد كانت عدتها سبعاً بدليل قول الشاعر : (وابراجها عدّ الكواكب سبعة) الخ .

وان البرج الواقع قرب مصب النهر يسميه العامة برج السبيع وليس برج السباع كما ترجمه بعض الفرنج الى لغاتهم .

ويغلب على الظن ان هذه الابراج لم تكن من بناء الفرنج بل من بناء المسلمين بعد الصليبيين . لان شكل البناء ليس بافرنجي . ولان طرابلس في الزمن الصليبي لم تكن تخشى غزاة البحر وانما صارت تحاذرهم لما استفحل امر القرصان ولاسيما من اهل قبرس وفيها مقر الملوك من آل لوزنيان الذين كانت لهم مملكة القدس بالاسم .

والنهر الجاري في طرابلس يعرف عند منبعه حتى اليوم بنهر قاديشا اي المقدسين ويجري فتضاف اليه بعض الجداول وقد ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الطرابلسية باسم الغضوب او الغضبان اشارة الى شدة حمولته ويعرف الآن باسم نهر ابي علي . ولا ندري كيف اطلق عليه هذا الاسم ولكن قد يمكن ان يكون وضع له اشارة الى الغلظة والشدة لان في الاحاديث الموضعية حكاية يتوارثها الابناء عن الآباء انه كان في البيمارستان القائم قرب جسر السويقة عريف شديد الغلظة اسمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابو علي . وقد درج على ألسنة الناس قولان كادا يذهبان مثلين احدهما اذا عُيِّر انسان بالغلظة يكنى بابي علي فيحسبها المكنى سبة ، وثانيهما قولهم ابو علي ثقل حديده كناية عن استحالة جنون المحكى عنه . ولعل تسمية النهر مستفادة من ذلك .

وللاسماء شأن خطير في الدلالة على الاصل . فالهضبة التي بنيت القلعة عليها لم تبق موسومة بهضبة الغرباء او الحجاج كما سماها الصليبيون انما تعرف البقعة الواقعة في قنتها بمار يوحنا والارجح انها اكتسبت هذا الاسم من مستشفى القديس يوحنا الذي كان على الهضبة على ما يؤخذ من كلام العلامة راي .

وفي جوار طرابلس عند طرف البحصاص الجنوبي موضع يقال له ابوحلقة وهذا الاسم كان حيرة بعض المؤرخين من قومنا وانما حاروا لانهم لم يفهموا المعني فكان قوم يقولون الحلقة الطرابلسية بالفاء او بالقاف ناقلين ماقيل عن حوادثها في بعض التواريخ القديمة من غير تحقيق عن اصلها .

انما الحلقة عند سلاطين مصر من المماليك عبارة عن الجند المرابط . ومتى عرف هذا الاسم اتضحت روايات غم فهمها .

والمكان الذي قرب طرابلس واقع على سيف البحر وفيه الطريق اليها فليس بعيداً ان يكون ولاة الامر في ذلك الحين قد جعلوا على الطريق العام مخفراً او مقراً لرجال من الحلقة الطرابلسية وكرت الايام فسماه الناس ابا حلقة .

فياسادتي الاعلام : حسبي الآن ماذكرت . لاني أخشى ان ازيدكم تطو يلاً فأفضي بكم الى السآمة والضجر على ان في طرابلس آثاراً أخرى مابرحت ماثلة وقد سبق لي فأتيت على ذكر بعضها في مقالة عنوانها (آثار الاسلام في طرابلس الشام) نشرتها مجلة المباحث قبل الحرب فاذا لم تجدوا في تكرار التحدث عنها بأساً أعدت الكرة على كتابتها .

والله المسؤول ان يأخذ بايديكم وان يزيدكم نشاطاً لاتمام عملكم المبرور و يثيبكم خيراً جزيلاً بمنه و كرمه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net